Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان الجاحظ وهو يسجل هذه الكلمات التى ذكرناها آنفا على علم تام بجودة المعانى ، وأهمية تلك الجودة لجودة العمل الأدبى ، وكان على علم تام أيضاً بأن هذه المعانى تتفاوت فيما بينها وتتفاضل .

ولا يخدعن أحداً قول الجاحظ إن المعانى « مطروحة فى الطريق » ، فيظن أن الجاحظ يهمل شأن المعانى ، أو أنها متساوية فى الجودة عند جميع الأدباء ، أو أن تحصيل تلك المعانى سهل ميسور على كل من أراد أن يؤلف أدباً أو يقول شعراً ، فإن تلك الظنون أبعد الأشياء عن الصواب فى فهم الجاحظ وإدراك مراميه ، ومعرفة رأيه الصحيح فى الألفاظ والمعانى . وقد يكون من الضرورى فى هذا المجال أن نقرر أن فهم الجاحظ وتصوره لحقائق الأشياء لايسهل إدراكه ، ومعرفة حقيقة رأيه فيه من عبارة واحدة فى سياق خاص أو فى معرض معين ، إذ إن طبيعة الاستطراد فى أسلوب الجاحظ ، وحماسته للرأى فى بعض الأحيان ، قد يكونا عاملين من العوامل فى عدم وضوح الرأى ، أو عدم تمامه فى موضعه الذى بدأه فيه ، فيكون الاقتصار على ذلك الرأى فى موضع ما ، وعدم استيعاب فكرة الجاحظ كاملة واستخلاصها من مواضعها المختلفة فى كتاب واحد ، أو المتفرقة فى عدة كتب من كتب الجاحظ – سبباً فى البعد عن فكرة الجاحظ ، وفى الخطأ فى تقدير الفكرة وأبعادها .

ومما يؤكد رأينا هذا أن تلك العبارة التى تمثل نظرية الجاحظ أو فكرته فى فن الشعر ليس لها وجود فى الكتاب الذى خصصه الجاحظ لدراسة الفن الأدبى ، وهو كتابه المعروف « البيان والتبيين » وهو مظنة هذا الرأى وموضعه الطبيعى ، ولكننا عثرنا على تلك العبارة فى كتاب لم يؤلفه فى الأدب أو النقد ، ولكنه وضعها فى كتاب له آخر بعيد فى موضوعه عن الأدب والنقد ، وهو كتاب « الحيوان » ! .

ولذلك قلنا إن الذى يمكن استنتاجه من هذه العبارة ، ولم نقل إن نص هذه العبارة يدل على الفكرة التى شرحناها ، وإنما أمكن ذلك الاستنتاج بضم ما تناثر من آراء الجاحظ إلى ذلك الرأى ، وتلك الآراء المتناثرة تدل على أن الجاحظ لم يغفل جانب المضمون أو جانب المعنى فى تقويم الأعمال الأدبية ، مع عنايته الواضحة بجانب الصياغة فى هذه العبارة التى بنينا عليها هذا الكلام .

فمن العبارات التى رواها الجاحظ عن بعضهم ، وأبدى استحسانه لها ، وجدارتها بتدوينه « لايكون الكلام يستحق اسم « البلاغة » حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه